

أَمْرًا مَوْفِقًا

- الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
- اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ عِنْدَ اللَّهِ
- وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ • يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ
- مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ

١- زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ

خرجت سعدى بنت ثعلبة تصحب غلامها اليافع ، لزيارة أهلها
من بني معن . . . وما كادت تستقر بينهم حتى طلب إليها الغلام أن
تأذن له باللهو قليلا مع أقرانه من غلمان أخواله خارج الدار ،
فأذنت له . .

ولم تمض ساعة حتى طغت فجوة على دور بني معن موجة دعر
شديد . . فقد أغارت خيل لبني القين بن جسر ، وأخذت تنهب كل
ما تصل إليه خارج الدور ، مما خف حمله من أرزاق ومتاع ، واحتملت
فيما احتملت ذلك الغلام اليافع . . زيد بن حارثة . .

ودارت الأيام . . واستيقظ بنو كلب في صبيحة يوم باكر على
نغمات صوت حزين ، يردد أغنية جديدة باكية ، ألفوا سماع مثلها
من رجل منهم ، منذ غاب عنه وحيد الصغير الذي لم يتجاوز الثامنة
من عمره بعد . . . وأرهفت آذانهم والدمع يغلب ما قههم ، وهم
يستمعون إليه يقول :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل

أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإن كنت سائلا

أغالك سهل الأرض أم غائل الجبل

فيأليت شعري هل للدهر رجعة

فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل

وانخفق الصوت ، فوقف وقفة قصيرة ، تخلمها بكاء مشير ...
وما لبث أن عاد يقول :

تذكرني الشمس عندما طلوعها
وتعرض ذكراه إذا ما قارب الطبل
وإن هبت الأرواح هيحن ذكره
فيا طول ما حزني عليه ويا وجل
سأعمل نص العس في الأرض جاهدا
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو ثاني على منيتي
وكل امرئ فان وإن غره الأمل

وحركت نغمات الأسى قلب رجل عجوز من قومه ، فلم يستطع
الصمود أمام سيل الحزن المتدفق من أعماق حارثة بن شراحيل ،
ولم يتمالك نفسه أن هب من دأره ، ليوقف السيل ما استطاع ، فأمسك
بالرجل الجريح المكبوم بيد مرتعشة حانية ، وقال :

— حنانيك أيها الرجل ... بعض ما أنت فيه ...
وسقط حارثة على الأرض إعياء وهو يقول :
— لقد فرى كبدي !!

وأقبل موسم الحج بعد شهور ، وخرج رجال من بني كلب إلى
البيت الحرام في مكة عاصمة الجزيرة ، وبينما هم يطوفون حول الكعبة ،

وفي مخيلتهم صورة حارثة .. هذا الرجل الباكي ، إذ لمحوا زيدا ابنه على
غير بعيد منهم ، وقد جلس على حافة حلقة من رجال عبد العزى ..
فأسرعوا إليه فعرّفهم ، وأنبأهم عن قصته ، حين اختطفه رجال بني
القيين وعرضوه للبيع في سوق عكاظ ، حيث اشتراه حكيم بن حزام
لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قریش
محمد بن عبد الله وهبته له ..

وتبسم الغلام السعيد ، وهو يعلن سعادته لقومه ، ويقول لهم :
بلغوا أهلي هذه الآيات عني ، فإنّي أعلم أنهم قد جزعوا على ..

ألكني لقومي وإن كنت نائبا

بأني قطين البيت عند المشاعر

فكفروا عن الوجد الذي قد شجاكمو

ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر

فإنّي بحمد الله في خير أسرة

كرام معد كبرا بعد كابر

وانطلق الكليون إلى ديارهم وأعدوا أباه ، فأسرع الأب

وأخوه كعب إلى مكة بفدائه ، ودخلا على رسول الله ﷺ وهما

لا يعلمان شيئا عن أمر الدين الجديد .. وقالوا :

— يا ابن عبد الله ، يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد

قومه ... أأنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العاني ،

وتطعمون الأسير ... جئنا في ابنا ، فامنن علينا وأحسن إلينا في

فدائه ، فإذا سترفع الغداء . . .

وهش رسول الله ﷺ للرجلين ، ثم نظر إلى حارثة - على غير بعيد منه - وقال :

— ما هو ؟

— زيد بن حارثة . .

— فهل لك غير ذلك ؟

— ما هو . . ؟

— ادعوه بخبروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني

هو الله ما أنا بالذي أختار على من يختارني . .

— قد زدنا على النصف وأحسننا !!

ونادى رسول الله ﷺ زيدا وقال :

— هل تعرف هؤلاء ؟

— نعم !!

— من هما ؟

— هذا أبي ، وهذا عمي . .

— فأنا من علمت ، ورأيت صحبتي لك ، فاخترني واخترهما .

وكتب الرجلان أنفاسهما وهما ينظران إلى الغلام يقول

للرسول الأعظم :

— ما أنا بالذي أختار عليك أحدا ، أنت مني بمكانة الأب والأم !!

وعلت الدهشة وجه الرجلين فقالا :

- ويحك يا زيد .. أنتخار العبودية على الحرية ، وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك ؟ ؟

- نعم . إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا . ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا

وأشرق وجه رسول الله ﷺ بالسرور ، وانطلق بالغلام إلى الحجر ، وصاح بأعلى صوته وسط من كان فيه من الناس فقال :
- يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابني ، أرثه ويرثني . .
وأمام تلك الصورة الفريدة من الوفاء والولاء ، طابت نفس الأب والعم ، فأثنا برسول الله وانصرفا لا يلويان على شيء

ونزلت الرسالة على محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وكان زيد أول من أسلم ، ومن ثم لم يترك النبي ﷺ لحظة من لحظاته ، فأورثه الله حب رسوله وأورث رسوله حبه ... فكان المسلمون لا يدعونه باسم دون زيد بن محمد ، حتى نزل قول الله تعالى في محكم كتابه :
« أدعوهم لآبائهم هو أفسط عند الله ، . . وآخى الرسول بينه وبين جعفر بن أبي طالب أعوام الحصار في مكة . .

وأذن الله لرسوله بالهجرة ، فهاجر زيد مع صحابة الرسول ، ونزل في المدينة على سعد بن خيصة ، فلما وافاهم النبي فيها ، وآخى بينهم أخوين أخوين ، كان زيد مع حمزة - سيد الشهداء - أخوين في الله .

وعمضى على الهجرة عام وبعض عام ، ونزل قول الله على رسول الله ﷺ ، أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، .. ودخلت دعوة الرسول في طور جديد من أطوار القوة ، فقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد الشاب من الزمالة المرموقين ، فشهد بدرا فأحسن البلاء ، وكان هو البشير إلى المدينة بنصر المؤمنين . . وجاءت غزوة أحد فكان فيها نعم القوى الأمين ، ولما استشهد حمزة أخى رسول الله ﷺ بن زيد وبين أسيد بن حضير سيد قومه .

وتتابعت المعارك فكان ابن حارثة من أشد أصحاب رسول الله ﷺ بأسا وأصدقهم بلاء ، فشهد الخندق والحديبية وخيبر وحنين ، واستخلفه الرسول على المدينة من بعده حين خرج ﷺ إلى المريسيع . .

وخرج زيدا أميرا لسبع سرايا أولها القردة ، فاعترض لعين قريبش فأصابها وأفلت منه أبو سفيان . . . وأسر زيد فراث بن حيان العجلي ، فكانت الغنيمة أول غنيمة كبرى للمسلمين ، ومن ثم لم يخرج في جيش بعدها إلا جعله ﷺ على رأس جنده .

وزوجه رسول الله ﷺ بمولاته أم أيمن ، فولدت له أسامة فنشأ على غرارها ، وصار هو الآخر حب رسول الله ﷺ وابن حبه . وأراد الله أن يكرم زيدا في القرآن وأن يجعله نقطة تطور في التشريع ، فزوجه رسول الله من بنت عمته زينب بنت جحش - أم

المؤمنين رضى الله عنها - ليبين للمؤمنين برسالة ﷺ أن ز يذب وهي من شريفات بنى هاشم ، قد تشرفت بزواج زيد المؤمن وهو من موالى رسول الله ﷺ ! فلما طلقها زيد تزوجها من بعده رسول الله ليقتضى ﷺ على ما بقى للجاهلية من آثار فى مجتمع المسلمين ، وليذكر القرآن الكريم زيدا باسمه العلم دون غيره من أصحاب رسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى : فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيانهم . . .

وخرج جيش المسلمين فى ثلاثة آلاف مقاتل ، لقتال الروم فى مؤتة . . وعتمد رسول الله اللواء لزيد بن حارثة ، وقدمه على بقية الأمراء وقال :

— إن أصيب زيد جعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة على الناس . .

ونزل زيد على رأس جيشه فى مؤتة ، فرأى الروم قد جاوزوا المائة ألف عداء . . . ورأى رجاله يترددون فى خوض حرب كائنا ما هى القناء ، وهناك اندفع زيد أمام جيشه ، ليعلن فى ساحة الجهاد أن عدة النصر هى الإقدام ، وأن ثمن الجنة هو الشهادة .

وتناوله سيوف الأعداء وهو يقاتل دون راية رسول الله فزقته إربا إربا .

وفى المدينة وقف رسول الله ﷺ إلى جانب منبره بالمسجد بعد صلاة العصر ، يقول للمسلمين :

— استغفروا لزيد .. لقد دخل الجنة وهو يسعى ..

ثم انطلق رسول الله إلى دار زيد ، فحششت بنت زيد أمام حضرتها بالبكاء ، فبكى النبي حتى انتحب .

وتقدم سعد بن معاذ إلى الرسول وهو مشفق عليه من الحزن ، وقال :

يا رسول الله ما هذا ؟

وأجابه ﷺ بكلمة الحب والوفاء فقال :

هذا شوق الحبيب إلى الحبيب !!



٢ - جعفر بن أبي طالب

كان زواج فاطمة بنت أسد من أبي طالب بن عبد المطلب حديث الغرابة والدهشة بين الأشراف من قريش ، وخاصة بين بني هاشم .. فلقد أصر أبو طالب أن يتحدى عرف أهله وقومه ، فكان أول هاشمي يتزوج من هاشمية .

ومات عبد المطلب - سيد مكة - وترك لابنه أبي طالب ذلك المجد العريض من سيادة قومه ، فازداد سعة في الإنفاق ، وتكاثف مع زوجه الهاشمية في البذل والسخاء على طبيعة بني هاشم ، احتفاظا بمهابة البيت بين العرب ، فهو قد صار كعبة القبائل من مختلف البقاع . ومرت بمكة أيام جذب عجاف ، أصابت قريشا منها أزمة فقر شديد ، انقلب معها ثراء أبي طالب نفسه إلى ضيق وحرمان وشظف عيش ، فكان السيد الكبير يعاني نازلة الفقر أكثر مما يعانيه بيت من بيوت الأشراف ، وكانت كثرة أولاده عنوانا صارخا على ذلة الأعزاء .

واختل شريف قريش - محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه - بعمه العباس بن عبد المطلب وكان أيسر بني هاشم ، وقال :
- يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه ، فانخفف عنه من عياله .. آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنكفها عنه ..

واستجاب العباس إلى رسول الله ﷺ ، فانطلقا إلى بيت أبي طالب ، فقال ﷺ ، لعمه :

- إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

واستضامت نفس أبي طالب لوفاء النبي فقال :

- إذا تركتني عقيلا ، فاصنع ما شئت .

فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه .

وبقى جعفر في كنف العباس ، يحيا حياة الترف والثراء ، حتى بعث الله نبيه إلى العالمين بالهدى ودين الحق . . فأسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها . . ثم استغنى بعد ذلك عن العيش في بيت عمه ، لأنه لم يعلن إسلامه بعد هو الآخر . ١١

واشتد إيذاء قريش للمسلمين وأصاب جعفرا من أذى الكفار ما جعل مقامه في مكة أمرا لا يطاق ، فكانت الهجرة إلى الحبشة . . وكان جعفر هو أمير المهاجرين ، وهاجرت معه زوجته أسماء بنت عميس فولدت له هناك عبدالله فكان ، أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة .

وبعثت قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ، عبدالله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص ، وبعثت معها الهدايا والقربات ، وطابت منه في كتابها إليه أن يسلم رسولها أولئك النفرة الخارجين على دين اللات

والعزى ، فدعا النجاشى جعفرا ليسأله عن الدين الجديد ، فى حضرة
الرسولين ، فأجابه جعفر بهراحة المؤمن . . وقال آخر ما قال :
- إن ديننا قد أخرجنا من عبادة الناس إلى عبادة الله .
واستقر المعنى الرهيب فى قلب النجاشى ، فأعاد إلى رسول قريش
هدايا قريش . . وقال :

- إني مانعهم فى أرضى ، ولن أسلمهم أبدا . ١١
وأراد عمرو بن العاص أن يعاود السكرة على النجاشى ، وأن
يوقع بينه وبين المسلمين ، وأن يحرك نزعة العقيدة فى نفسه ، فقال :
- أيها الملك العادل ، إنا نريد أن تسأل جعفرا عن قول الإسلام
فى ابن مريم !

وجاء جعفر بين يدى النجاشى مرة أخرى ليجيب عن السؤال
الدقيق . . فقال :

- إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . . وإن هو إلا عبد
أنعم الله عليه . ١٢

وفى وسط الحلقة الرهيبية قرر النجاشى أن يمنع المسلمين فى أرضه
مما يمنع منه أهل الحبشة على السواء

ثم أعلن إسلامه لجعفر ومن معه ، وأخفاه عن قومه ورعاياه . .
ومن ثم أباح للمسلمين أن يدعوا من يشاؤون دعوته إلى الإسلام . . فآمن
من أهل الحبشة كثيرون ، كانوا هم عماد الدعوة إلى الدين الجديد فى
الأرض الصالح راعيها . .

وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فاستقرت فيها الدعوة إلى الله بعيدا عن عنت المشركين وإرهاقهم، فانتشرت في الربوع، وتهيأت لمقارعة القوة بمثلها، ثم ما لبثت أن دعمت حجة الحق بقوة والسيف.. وبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية يطلب منه إعادة المسلمين إلى وطنهم الآمن بعاصمة الإسلام في المدينة فأعادهم النجاشي مكرمين على سفيتين، فقدموا على النبي ﷺ، وكان وصولهم يوم أن وقف النبي ﷺ في أصحابه يدكون قلاع اليهود في خير، ليطهروا أرض الجزيرة من آخر قلعة لأشد الناس عداوة للذين آمنوا..

واستقبلهم النبي ﷺ استقبال الأب الحاني، ثم ضم جعفرا إلى صدره، وأخذ يشمه ويقبل ما بين عينيه، ويقول:

- ما أدرى بأيهما أنا أسر؟ بفتح خير أم بقدوم جعفر؟

وعاش سيد شباب بني هاشم بالمدينة مدة قصيرة، دعا بعدها داعي الجهاد إلى حرب الروم في مؤتة.. وخرج جعفر بعد أن ودع زوجته وأطفاله، وسار تحت لواء رسول الله ﷺ خلف زيد ابن حارثة، أمير الجيش.

وفي مؤتة التقت القوتان المتباينتان.. قوة المسلمين في ثلاثة آلاف مقاتل، وقوة الروم في مائة ألف أو يزيدون، ودارت رحى الحرب شديدة طاحنة، وخر أمير الجيش شهيدا تحت اللوام الحفّاق، وتقدم جعفر ليخلف القائد الشهيد، امتثالا لأمر رسول الله ﷺ إليه بالمدينة.

وأقبل الشيطان يزين لفتى بنى هاشم الحياة ويخيفه الموت . .
فانبعث حرارة الإيمان من أعماقه لتحرق الوسواس الخناس ،
فقال جعفر يخاطب نفسه على ملأ من حوله ، وقد حمى الوطيس :
- آ لآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين ، تمنى الدنيا ؟
ثم اقتحم عن فرسه الشقراء ، ورمى بنفسه بين العدو وهو يقول :
يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كفرة بعيدة أنسابها
على إذا لا قيتها ضرابها

وانقض الأمير الهاشمى على هامات الروم يطيح بها يمينا
وشمالا . . وخاف قواد الروم سوء المصير ، فحشدوا قواتهم فأحاطوا
بجعفر من كل جانب ، وأخذوا يوقفون سيله ويغلقون سيله إلى
داخل صفوفهم ، حتى استطاعوا أن يصيبوه بضربة سيف فقطعوا
يمينه ، فأخذ البطل اللوام بشماله ، فما لبث أن أصيب بضربة ثانية
قطعت شماله هى الأخرى ، فحمل اللوام بعضديه ، وأخذ يكبر ويهلل
وكأنه على رأس جيش منصور !!

وتسلطت على الأمير سيوف الروم فقطعت رجله ، ثم شطرت
جسده شطرين ، بعد أن أصابوه بثلاثة وتسعين طعنة ، استقرت كلها
فى صدره دون ظهره .

• • •

ووقف رسول الله ﷺ بين أصحابه فى المدينة ، يعلنهم بالنبا
العظيم ، وكأنه يراه رأى العين ويقول :

- أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا . . ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا .

وبعد الجلسة الرهيبة ، غادر رسول الله المسجد إلى دار جعفر ، فوجد امرأته أسماء تنظف أبناءها وتعلمهم ، فتقدم إليهم عليهم السلام وأخذ يتشممهم وهو يبكي ، فقالت له أسماء :

- يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟؟

وأجابها الرسول والدمع يذرف من مآقيه :

- أصيبوا اليوم .

وارتفع صوت الزوجة الوقية بالبكاء ، فأقبل إليها نساء المسلمين يشاركنها الحزن والرتاء . . ورأى رسول الله انشغال آل جعفر بأمر جعفر عن صديانه الصغار ، فقاضت عيناه من الدمع ، ، وخرج من البيت الحزين ، وقال :

- لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

وبعد صلاة المغرب ، وقف الرسول وسط أصحابه ، وذكر جعفرا وقال :

- لقد رأيته في الجنة ، له جناحان مضر جان بالدماء ، مصبوغ القوادم .

ومضت أيام ، هدأت بعدها حدة الحزن في بيت جعفر ، وتقدمت

الزوجة الثكلى إلى رسول الله ، وذكرت يتم أطفالها وضيق معاشهم بعد موت أبيهم الغنى الجواد ، فبكى رسول الله وقال :

- العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة !!

وسمع أبوهريرة قصة أسماء ، فبكى على أسخى بنى هاشم وأجودهم بعد رسول الله ، وقال :

- كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان فى بيته ، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التى ليس فيها شيء ، فيشقها فنلحق ما فيها . . .

ومضت أيام آخر ، عاد بعدها جيش المسلمين من مؤتة ، وهرع الصبيان إلى لقائه عند أبواب المدينة بالزجر وحثو التراب .. وهرع معهم عبد الله ومحمد وعون أبناء جعفر ، يتشممون رائحة أبيهم الشهيد .. وما لبثوا أن عادوا يحملون شرف المجد الذى شيده الأب فى ميدان الجهاد ، حيث بقى جسده الطاهر فى أرض مؤتة ، علما على الشهادة بين الشهداء ..

٣ - عبد الله بن رواحه

لم تكن القافلة العظيمة لتحدث الضجة الكبرى بين أهل يثرب لولا أنها تحوى رجلا جليل القدر بين الناس كعبد الله بن رواحه . . . ذلك الشاعر الفحل والكاتب الشهير وسط الأمية الضاربة بين قبائل العرب .

إن وجهتها مكة البلد الحرام ، حيث تستعر نار الحرب بين عقيدتين متباينتين ، عقيدة الآباء يحميها السادة القرشيون ، وعقيدة التوحيد يعلنها شريف قريش - محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه - ويلتف حول لوائها حفنة قليلة من المستضعفين . .

وكان بنو النجار في المدينة - وهم أخوال النبي الجديد ﷺ - أكثر الناس قلقا ودهشة لأمر القافلة الخطيرة وهي تشق طريقها في قلب الصحراء نحو الميدان المستعر ، لأنهم يعلمون ما تنطوى عليه الرحلة من معان رهيبة ، سوف يكون لها أعماق الآثار في مستقبل الجزيرة كلها .

وفي ظلام المكون وصلت القافلة إلى منافذ المدينة المضطربة ، وترجل من فوق ظهور الإبل سبعون من بني الأوس والخزرج عند العقبة في الساعة المعلومه . . وكان اللقاء رهيبا بين رسول الله ﷺ وبين الرعيل الأول من المؤمنين برسالة من أهل المدينة .

وامتد بساط البيعة فبايع بنو الأوس والخزرج جميعا رسول

الله ﷺ .. على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم .
وأمر رسول الله ﷺ بأن يختاروا منهم اثني عشر نقيبا ،
ليكونوا أمراء الناس في الدعوة إلى التوحيد ، عندما يعودون إلى
بلادهم وأقوامهم ، فاختار بنو الحارث بن الخزرج عبد الله بن
رواحه نقيبا لهم .

وعاد رجال العقبة ، فبدأوا المدينة لدعوة النور ، حتى إذا ما كانت
الهجرة ، كانوا هم الأوفياء الذين آووا ونصروا وآثروا رسول الله
ﷺ وأصحابه على أنفسهم وأهليهم ..

وازداد عبد الله بن رواحة تعلقا برسول الله ﷺ وامتلات
نفسه الكبيرة بجلال البيعة ، فكان علما على كمال الطاعة ، وحسن الاتباع ..
لقد جاء إلى المسجد يوما ، وكان الرسول يتأهب لإلقاء خطبته
بين المسلمين ، فما كاد عبد الله يسمع النبي ﷺ يقول للناس :
« اجلسوا » ، حتى جلس من فوره خارج المسجد نزولا مطلقا على
أمر النبوة ، وحرصا على ألا تفوته كلمة من الكلمات الخالدات ..
حتى إذا ما فرغ النبي ﷺ من خطابه ، كانت المعاني السامية تهز ابن
رواحه هذا ، جعلته ينتفض بين الناس بحرارة الإيمان ، وينطلق لسانه
الفصيح بآيات الوفاء والثناء .

وسمع رسول الله ﷺ بأمر عبد الله ، فاستدعاه وقال له :
- زادك الله حرصا على طوعية الله وطوعية رسوله ..
وأذن الله لنبيه بقتال الكافرين ذودا عن الدين وردا للعدوان ،

فكان عبد الله بن رواحة أول قافل ذب عن رسول الله ﷺ وسيفه ، وكان أول الخارجين في كل غزوة ، وآخر العائدين منها ! وكان البشير الذي بعثه رسول الله ﷺ إلى العالية ، لينثر بشعره الرصين بين الناس آيات النصر في ساحة بدر ، حيث انهارت جحافل الكفار أمام قلة المؤمنين في ساعة من نهار . . .

وشهد عبد الله أحدا والخندق والحديبية وخيبر . . فاستحق بذلك رضوان الله ومغفرته ، حيث قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار أحد شهد بدرا والحديبية » ، ولقد شهدهما ابن رواحة ، بل كان في الطليعة ممن شهدوهما . .

ودخل رسول الله ﷺ مكة بعد سنوات الجهاد الأولى ، في عمرة القضاء ، وكان ابن رواحة ، هو صاحب زمام الناقة ، فما كاد يلج وجوه الكفار ، حتى دوى لسانه بصوت الشعر يرسله من معينه الدافق بينهم ، وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سيده خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله
وغضب عمر بن الخطاب ، فقال :

— يا ابن رواحة ، في حرم الله وبين يدي رسول الله ، تقول هذا الشعر ؟

وصمت ابن رواحة ، لأنه يدرك أن من تكريم الله ﷻ أن أبعد عن الشعر وعن قوله ، فقال تعالى : « وما علينا الشعر وما ينبغي

له . . . ولم يطل صمته أمام اعتراض عمر حتى قال رسول الله ﷺ :
— خل عنه يا عمر . فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من

وقع النبل . !!

وانتفعت نفس ابن رواحة بقول رسول الله ﷺ ، فقال :

يا رب لو لا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صابنا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بغوا علينا

وتبسم رسول الله ﷺ وقال :

- اللهم ارحمه . .

وتبسم عمر لقول رسول الله ﷺ وقال :

— وجبت !!

ولما نزل قول الله عز وجل على رسوله ﷺ : والشعراء يتبعهم

الغاوون ، أخذ ابن رواحة يشق ويجهش بالبكاء ويقول :

— إني منهم . !

فأنزل الله قوله تعالى : وإلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . ،

وقبل فتح خيبر ، بعثه رسول الله ﷺ على رأس ثلاثين فارسا

إلى أسيد بن قرام اليهودي هناك فقتله ، وأشاع بشعره الرهيب

الخوف في قلوب اليهود جميعا . . ولما عاد ، وجد بلامه قد شاع في

المدينة ، ووجد أبطال المسلمين يكبرونه ويعظمونه ، حتى لقد قال

فيه الزبير بن العوام فارس رسول الله ﷺ :

— ما رأيت أحدا أجراً ولا أسرع شعراً من ابن رواحة .

وتهبأ المسلمون للخروج إلى مؤتة ، ووقف ثلاثة آلاف من المسلمين خارج المدينة في صفوف منتظمة قبل المسير للقاء الروم . . . ووقف رسول الله ﷺ يودع الجيش ، بعد أن جعل على رأسه زيد بن حارثة ، وقال :

- إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر ، فعبداً لله بن رواحة على الناس . . . وما كاد الرسول يعلن ذلك الأمر حتى كبر الأنصار وهللوا . . . لقد شرفهم رسول الله ﷺ فأشركهم في شخص ابن رواحة قيادة المسلمين ، كالمهاجرين سواء بسواء . .

وطغت رهبة الموقف على نفس ابن رواحة وقد فهم من كلام الرسول ﷺ أن زيدا وجعفرا سيكونان من الشهداء . . هنالك أخذ يبكي وقد خاف من نفسه ألا يكون دون المهاجرين الكريمين إيماناً وإقداماً . . !

وأقبل عليه الأنصار يودعوناه . . فقال له بعضهم :

- ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ فأجاب قائلاً :

- أما والله ما بي حب الدنيا ، ولا صباة إليها ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : « وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً ، . . فليست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود ؟ ؟ »

هناك هن المعنى الرهيب قلوب الأنصار وقالوا:

— صحبكم الله ، وردكم إلينا صالحين ..

فقال ابن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات قرع تقذف الزبداء
أو طعنة بيد حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبداء
حتى يقولوا إذا مروا على جدتى أرشده الله من غاز وقد رشدا
ثم سار ابن رواحة ، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ وودعه ،
فدعاه الرسول بخير .

وسار الجيش خلف الأمراء الثلاثة ، وكان في رحل عبد الله بن
رواحه غلام يتيم له ، هو زيد بن أرقم ، فما كاد يرعى الليل سدوله
ويطفي من خلاله على الجيش جلال السعى لإعلاء كلمة الله ، حتى
أخذت ابن رواحة هزة شوق إلى الشهادة ، فأخذ يشد ويقول على
مسمع من الغلام ، وكأنه يخاطبه :

إذا أدبنتى وحمات رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعمى وخلاك ذمى ولا أرجع إلى أصلى ورائى
وجاء المؤمنون وغادرونى بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ولا نخل أسافلها سواء

فلما انتهى ابن رواحة بكى الغلام واشتد نواحه ، وكأنه تصور
فراق سيده في ساحة القتال ..

فلما سمعه عبدالله خفقه بالدرة وقال :

— ما عليك أن يرزقني الله الشهادة ، وترجع بين شعبي الرجل ؟
ومضى الجيش حتى نزل معان من أرض الشام .. وهناك جاءت
الأخبار عن وصول هرقل على رأس جيشه لملاقاة المسلمين في مائة
ألف مقاتل من الروم ، ومثلهم من المستعربين .

وجئتم الأهوال على المسلمين ، وأخذوا يفكرون في الأمر مليا
حتى قال بعضهم :

— نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا
بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ومن خلال موجة الفزع ، قام ابن رواحة في الجيش خطيبا بعد
أن أذن له الأمير الأول بالكلام ، فقال :

— يا قوم ، والله إن التي تـكـرهون ، التي خرجتم تطلبون -
الشهادة - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، إنما نقاتلهم بهذا
الدين الذي أكرمنا الله به .. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين .. إما
التصريح .. وإما الشهادة !!

ونزلت الكلمات القوية على قلب الجند ، فأحالتها جبالا راسيات ..
حتى قال الناس :

— قد والله صدق ابن رواحة !!

ومضى الجيش إلى وجهته حتى نزل بمؤتة ، ووقف في قلبه الضيقة
فمام الكثرة الهائلة ..

وشمرت حرب الفناء عن ساقها ، فتقدم الأمير الأول زيد بن
حارثة ، فما لبث أن مات شهيدا ، وحمل اللواء من بعده الأمير الثاني
جعفر بن أبي طالب ، فما لبث أن مزقته السيوف إربا إربا . .
وجاء دور الأمير الثالث عبد الله بن رواحة ، فعاد إليه الوجل
والناس يدعونه إلى مكان الأمانة فيهم ، فتقدم وهو يخاطب نفسه
على ملا المسلمين والكفار ، ويقول :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلی فعلها هربت
وإن تأخرت فقد شقيت

ثم ارتعد رعدة مهيبة ، قال بعدها :

— يا نفس !! إلى أى شيء تتوقين ؟؟ إلى إمرأتى ؟؟ فهى طالق ..
إلى غلبنى ؟؟ فهم أحرار ، !! إلى مالى ؟؟ فهو لله ورسوله . !!

وحمل الأمير الثالث الراية ، ونفذ إلى صفوف الأعداء ، فرأى
الموت يحصد المسلمين حصدا ، فهاجت نفسه ، فعاد قليلا وهو يقول :

يا نفس مالك تكرهين الجنة أقسم بالله لتنزلنـه
طائفة أو لتكرهنـه فطالما كنت مطمئنة
هل أنت إلا نطفة فى شنة قد أجلب الناس وشدوا الرنة . .

ثم رمى بنفسه وسط الأعداء ، فاستقبلته السيوف تطعنه فى رأسه
فقاتل يدا ، وحمى رأسه ييدا . . ولكن ما لبث أن أصيب بضربة
قائلة ، فسقط شهيدا بين الصفين .

ووقف رسول الله ﷺ بين أصحابه بالمدينة ، يعلن النبأ ساعة وقوعه .. وكأنه في ساحته ، وقال :

— أخذ زيد بن حارثة الراية فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها حتى قتل شهيدا ..

ثم صمت الرسول ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وضنوا أنه قد كان في ابن رواحة بعض ما يكرهون .. ولكنهم لم يطل تساؤلهم كثيرا ، حتى انطلق لسان الرسول ﷺ بعد هنيهة يقول :

— ثم أخذها عبدالله بن رواحة ، فقاتل بها حتى قتل شهيدا ..

وصمت الرسول لحظة أخرى والناس في خشوع رهيب ، وما لبث أن قال :

— لقد رفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب ! فرأيت في سرير عبدالله ابن رواحة أزورا عن سريري صاحبيه ، فقلت عم هذا ؟ فقبل لي : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد .. ثم مضى . ! !

وجمّش الناس بالبكاء على الأمراء الثلاثة ، وارتفعت الأصوات بالثناء لكل منهم على السواء .

وصلى المسلمون صلاة المغرب والعشاء خلف رسول الله ، وما يقدر أحد على النظر إلى وجهه ﷺ ، لفرط ما يملؤه من الحزن العميق .. حتى كانت صلاة الغداة من اليوم التالي ، حيث انقلب غمه إلى رضى وإشراق ، ومن ثم استدار إلى الجموع بالمسجد وهو يبتسم .. فقال له بعضهم :

— يا نبي الله بأنفسنا أنت .. ما يعلم إلا الله ما كان بنا من الوجود
منذ رأينا منك الذي رأينا ..
فأجابهم ﷺ وقال :
— كان الذي رأيتم مني أنه أحزنتني قتل أصحابي ، حتى رأيتم في
الجنة إخوانا على سرر متقابلين ..

ووقف أبو الدرداء صاحب رسول الله ﷺ يبكي في حلقة
من الناس على فراق عبد الله بن رواحة ، ويقول :
— أعوذ بالله أن يأتي يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ..
كان إذا لقيني يقول : يا عويمر اجلس فالتؤ من ساعة .. فنجلس
فنذكر الله ما شاء الله ، ثم يقول : يا عويمر هذا هو الإيمان .. هذا
هو الإيمان ..

